بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بين يدى هذا الكتاب

بقلم الأستاذ الدكتور عبد العظيم المطعنى

كان الهدف - ولا يزال - لدى مكتبة وهبة ، من إصدار سلسلة « لا بد من دين الله لدنيا الناس » هو الرد الموضوعى الهادئ على الكارهين لما أنزل الله ، الذين يتطاولون على الإسلام بشتَّى وسائل التعبير ، وكثيراً ما يمتد تطاولهم على الأزهر الشريف - حامى حمى الإسلام - وقد طالبوه - مراراً - أن يرفع يده عن « مصر » ، بل ، وعن العالَم العربى والإسلامى ، لأنه - فى نظرهم - يمثل قوى الرجعية والجمود والتخلف ؟! ويقف حجر عثرة فى طريق حرية الفكر والإبداع ؟! وفى إحدى الأزمات طالب الكارهون لما أنزل الله - طالبوا الأزهر بأن يقصر دوره على « مراجعة المصحف » ، وأن لا يزج بأنفه فى شئون الحياة ؟! فهو لن يصلح لها ، ولا هى فى حاجة إليه ؟

وفى إطار الرد على هؤلاء الكارهين لما أنزل الله ، يصدر هذا العدد من سلسلة « لا بد من دين الله لدنيا الناس » مبرزاً دور الأزهر الخالد عبر مرحلة تاريخية ذات خطر ، من مراحل تاريخ مصر والعالَم العربى الإسلامى ، تلك المرحلة هى : « دور الأزهر السياسى فى مصر إبَّان الحكم العثمانى » .

وسيرى القارئ مواقف علماء الأزهر الأبرار فى الحفاظ على قِيَم الإسلام ، ورعاية مصالح البلاد الدينية والدنيوية ، وكيف كانوا يثورون فى وجه الظلم والاستبداد السياسى والاجتماعى ، منزهين عن الأغراض الشخصية لا يريدون إلا وجه الله .

هانت الدنيا عندهم ، وترفَّعوا عن زخارفها وملاذها ، فعظمت منزلتهم

عند الناس ، وصاروا منجاً وملاذاً لهم فى كل الشدائد ، وخشاهم الحكام ، ورضخ لهم الباب العالى ، وما أكثر ما سارع فى الاستجابة لمطالبهم القومية العادلة .

كان علماء الأزهر - بحق - هم السلطة العليا التى ترسم مصالح البلاد ، وترغم الحكام على رعايتها ، وإلا فإن للعلماء غضبة ترتعد لها الفرائص ، وتنحنى لها جباه أئمة الظلم والطغيان ، ولولا الأزهر لضاعت مصر فى مهب الرياح ، ومن أعجب ما سيراه القارئ دفاع علماء الأزهر عن « يهود مصر » فى ذلك الحين ، فقد تعرَّضت البلاد لأزمة اقتصادية كان اليهود هم مدبريها ، ولما علم شعب مصر كاد يبطش باليهود ، إلا أن علماء الأزهر سارعوا إلى إطفاء الفتنة وحموا أرواح اليهود بعد أن أخذوا العهد عليهم بألا يعودوا مرة أُخرى إلى الإضرار بمصالح شعب مصر ، ومرت الأزمة ، هذه إلى عشرات المواقف البطولية التى سجلها علماء الأزهر ، الذين قال فيهم أمير الشعراء شوقى :

قُم فى فم الدنيا وحيى الأزهرا وانثر على سمع الزمان الجوهرا
واخشـــع ملياً واقض حق أئمة طلعوا به زُهرًا ، وماجوا أبحُـرا

إن فضل الأزهر على مصر وعلى العالَم الإسلامى عظيم عظيم ، فأين هم الكارهون لما أنزل الله من هذا التاريخ المشرق الخالد .

وكاتب هذا العدد من السلسلة هو الأستاذ الدكتور عبد الجواد صابر إسماعيل ، أحد العلماء المتخصصين فى تاريخ الأزهر الحديث ، وقد وعدنا - إذا أذن له الله - أن يحرر ثلاث رسائل أُخرى لهذه السلسلة : واحدة عن دور الأزهر إبّان الحملة الفرنسية ، وواحدة عن دور الأزهر فى عهد محمد على ، والثالثة عن دور الأزهر فى عهد الاحتلال الإنجليزى ، دفاعاً عن الإسلام وعن أزهره العظيم ، وقطعاً لطريق الطعن فى الأزهر من الكارهين لما أنزل الله ؛ أعداء الإسلام والوطن ، وفقه الله .

أ . د . عبد العظيم المطعنى

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقـــدمة

أحمدك اللَّهُمَّ ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علَّمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، وأُصلّى وأُسلِّم على سيدنا محمد أستاذ البَشرية ورائد العلماء ، اللَّهُمَّ فصَلِّ وسلّم وبارك عليه وعلى آله وصحابته ومَن سار على هداه . . .

وبعد . .

فلقد ظل الأزهر أكثر من عشرة قرون منارة مصر المضيئة بما قام به من أدوار عظيمة فى الإصلاح ، والمعارضة السياسية ، وقيادة الانتفاضات والثورات ، ومقاومة الاستعمار ، وبرفعه لواء العلم والتعليم ، ونهوضه باللُّغة العربية ، وعلوم الشريعة الإسلامية ، وعلوم أُخرى كثيرة .

ففى أروقة الأزهر وحول أعمدته ظهرت الحركات التى طالبت بالحريات والحقوق العامة ، وناضلت فى سبيل رفع المظالم وترسيخ قواعد العدل .

وفى هذه الأروقة وحول تلك الأعمدة وُلِدت الثورات والانتفاضات التى واجهت السُّلُطات والأحزاب الحاكمة الجائرة .

وفى هذه الأروقة وحول تلك الأعمدة نشأ علماء أفذاذ جهابذة تألَّفت منهم جبهة سياسية معارضة جعلت دستورها الأخلاق والآداب القرآنية المحمدية .

وقد نجحت هذه المعارضة نجاحاً عظيماً مَهَّدَ لَهُ وأعانَ عَلَيْه الوجودُ القوى المؤثر لعلماء الأزهر فى الديوان العالى بمصر .

ومن مظاهر هذا النجاح أن جبهة علماء الأزهر استطاعت فى فترة الحكم

العثمانى إسقاط بعض الحكومات العثمانية الجائرة فى مصر ، كما استطاعت أن تقضى على بعض الأحزاب المملوكية الحاكمة المتسلطة التى أنَّت المجتمعات فى مصر من مظالمها وطغيانها .

وكثيرون منا يعرفون أن الأزهر قاد المقاومة المصرية التى انتهت بطرد الحملة الفرنسية من مصر فى سنة ١٢١٦ هـ (١٨٠١م) ، وأن الأزهر وأهله أعظم مَن تعرَّض للإرهاب الفرنسى ، وأن محمد على باشا حاك المؤامرات ضد علماء الأزهر وبثَّ بينهم الفتن لإقصائهم عن ميادين المعارضة السياسية ، وأن ثورة سنة ١٩١٩م خرجت من الأزهر الشريف ليتواصل الجهاد الوطنى ضد المستعمر البريطانى إلى أن حمل عصاه ورحل ، وأن رجال الأزهر أكثر مَن تعرَّض للإرهاب البريطانى وأعوانه . لكن ربما لا يعلم أحد أن الأزهر حاصره جيشُ الحزب القاسمى المملوكى الحاكم فى سنة ١٠٧٦ هـ (١٦٦٥م) لهدمه على مَن فيه ، وإلقاء أحجاره فى سعح المقطم ، وأن هذا الجيش ما شرع فى ضرب الأزهر بمدفعيته حتى أوقع الله عَزَّ وجَلَّ به هزيمة منكرة كان مصدرها الأفراس والبغال والحمير التى امتطاها جنودُ هذا الجيش وقادتُه ، وما هذا إلا مثل من وقائع كثيرة .

ولم تقتصر جبهة علماء الأزهر على نضالها البطولى فى ميدان المعارضة السياسية وقيادة الثورات والانتفاضات ، وإنما ارتادت فى الوقت نفسه ميدان الإصلاح السياسى والاجتماعى ، فحققت كثيراً من الإصلاح والمصالحات بين الفئات المتنازعة فى مصر ، كالمماليك والحكومة العثمانية ، وكالفرق العسكرية العثمانية ، وكالحكومة العثمانية والزارعين فى أعالى الصعيد ، وكعزل القادة العسكريين لاعتدائهم على الأهالى ، وكالعمل على خروج قافلة الحج مزوَّدة بكل ما يريح الحجاج ويحميهم ، وكتيسير المصالح المرسلة ، ودعم مرافقها ، وكترسيخ مقاطعة أعداء الأُمَّة الإسلامية فى ميادين التجارة العالمية ، كروسيا التى كانت حرباً عواناً متواصلةً على الدولة العثمانية دولة الخلافة الإسلامية ، كما كانت حرباً على الدول الإسلامية المجاورة لها .

ولعل أخطر شيء على الحياة العلمية والثقافية ستر الحقائق ، أو فرض مقولات باطلة .

ولقد تداولتُ ذات مرة الحديث مع الزميل العلامة الدكتور عبد العظيم المطعنى حول هذه القضية ، فانتهى بنا الحديث إلى أن جماعات ممن يدَّعون أنهم أصحاب فكر لم ينالوا بألسنتهم وأقلامهم مستعمراً ، ولا مغتصباً محتلاً ، ولا سفاكين لدماء أُمةٍ إسلامية هدَّامين لديارها مُشَرِّدين لأهلها بقدر ما نالوا من التوجهات الإسلامية والأزهر فى مصر تطاولاً بزور ، وجرأةً ببهتان ، وهم يريدون بهذا إقصاء الأزهر عن الحياة العامة .

وإذا كان رجل الشارع والمثقف العادى يدرك الأهداف الحقيقية لهذه التيَّارات ، فإن قارئ التاريخ يعرف جيداً جذور هذه التيَّارات وأُصولها التاريخية .

فلقد سخَّر الاستعمار البريطانى كل وسائله الظاهرة والخفية لإقصاء الأزهر عن الحياة السياسية والحياة العامة ليصبح مسجداً عادياً لإقامة الشعائر ، وقد نجح الاستعمار البريطانى بمساعدة أعوانه فى إقصاء الأزهر عن الحياة السياسية ، لكنه فشل فى إقصائه عن الحياة العامة لما أبداه علماء الأزهر وطلبته من نضال مشرِّف سجَّله لهم التاريخ بكل فخر وإعزاز ، هذه هى الأُصول ، وتلك هى الجذور التاريخية لتلك التيَّارات التى نراها اليوم .

غير أنه مما يبشر بالخير أننا نرى الأزهر اليوم وقد ارتاد بأبنائه الحياة العامة من أوسع أبوابها ، تعبيراً عن إرادة شعب مصر الذى تلاحم نضاله بنضال هذه المؤسسة العلمية الإسلامية فى مواجهة أعدائه على مدى التاريخ .

إن قارئ التاريخ المتخصص والعادى يعلم جيداً أن للأزهر حقوقاً تاريخية فى ارتياد ميدان السياسة ، وأن هذه الحقوق تستند أولاً وقبل كل شيء إلى قواعد الشريعة الإسلامية .

وإن آمالنا اليوم متعلقة بعودة علماء الأزهر إلى ميدان السياسة كما كانوا ، لأن عودتهم إلى هذا الميدان تعنى ببساطة عودة الشرف والأخلاق والقِيَم إليه .

ولما كان تاريخ الأزهر المديد لا يكفيه بحث واحد اكتفيتُ الآن بعرض تاريخه السياسى فى فترة الحكم العثمانى لمصر من سنة ٩٢٣ إلى سنة ١٢١٢ هـ (١٥١٧ - ١٧٩٧م) .

فهذه الفترة تخفى فى طياتها كثيراً من الحقائق التاريخية التى لا يعرفها الكثيرون ، كما أن الأزهر بلغ شأواً عظيماً إبَّان هذه الفترة فى ميدان المعارضة السياسية ، والإصلاح ، وقيادة الثورات ، والانتفاضات .

ومما يجدر ذكره أن هذا البحث اعتمد فى المقام الأول على وثائق هذه الفترة ، وعلى المؤلَّفات التاريخية التى عاصر أصحابها الوقائع والأحداث التى سجّلوها ، أو جاءوا بعدها بفترة وجيزة ، ومعظم هذه المؤلَّفات ما زالت مخطوطات لم تمتد إليها يد النشر حتى اليوم .

والله أسأل أن يلهمنا رشدنا ، وأن يجعل أعمالنا فى سبيله وابتغاء مرضاته .

وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

مكة المكرمة : جمادى الآخرة سنة ١٤١٥ هـ (نوفمبر سنة ١٩٩٤م) .

ا . د . عبد الجواد صابر إسماعيل

الأستاذ فى قسم التاريخ والحضارة

بكليات اللُّغة العربية - جامعة الأزهر

❊ ❊ ❊

مدخـــل

- موقفُ علماء الأزهر من الغزو العثمانى لمصر .
- دلائل تاريخية على مكانة الأزهر وعلمائه فى العصر العثمانى .

مَوْقفُ علماءِ الأزهرِ من الغَزْو العُثْمانىّ لِمصْرَ

كان السلطان سليم الأول فى نظر علماء الأزهر قائد الفئة المسلمة الباغية ، لأنه لم يكن هناك أمر شرعى يُعطى للدولة العثمانية الحق فى غزو الدولة المملوكية ذات الخلافة العبَّاسية والمذاهب الأربعة السُنِّية وصاحبة الجهاد ضد الصليبية الأوروبية فى البحر المتوسط والمحيط الهندى وخليج عدن والبحر الأحمر .

لهذا فإن عقلاء العثمانيين من الوزراء والقادة والمؤرخين عابوا على السلطان سليم الأول تحويله العسكرية العثمانية من الجهاد فى أوروبا إلى الفتنة فى الشرق الإسلامى ، وأرجع بعض الذين أرَّخوا للدولة العثمانية هذا التحول الذى أحدثه السلطان سليم الأول إلى خُلُق عدوانى ابتُلِى به هذا السلطان ، وظهر فى معظم أعماله .

كما لوحظ أن هذا السلطان خالف منهج أسلافه من سلاطين آل عثمان فى الحرب والسلام ، وخالف الدستور الذى أقرَّته الدولة العثمانية ، واستمد منه سلاطين آل عثمان منهجهم فى الحرب والسلام ، فلقد حدد هذا الدستور فى صراحة مناطق الحرب ومناطق السلام ، فجعل مناطق الحرب ديارَ الكفر ومناطق السلام ديارَ الإسلام .

ومما لا شك فيه أنه كان من الأجدى والأصلح سياسياً وعسكرياً للدولة العثمانية وللعالَم الإسلامى لو اتبع السلطان سليم السياسة الحكيمة التى انتهجها أبوه السلطان بايزيد الثانى (٨٨٦ - ٩١٨ هـ = ١٤٨١ - ١٥١٢م) عندما عضد الدولة المملوكية فى مصر والشام والحجاز ، ودعمها بالسلاح وآلة الحرب والسفن والجند والقادة ، لكى تواصل جهادها فى مواجهة البرتغال فى المحيط الهندى وخليج عدن والبحر الأحمر ، وهو بهذا أعلن إيمانه بأن الدولة

المملوكية ما هى إلا ذراع الدولة العثمانية القوية التى بها يقضى على الأطماع الصليبية فى جنوب العالَم الإسلامى ، وأنها أتاحت للدول العثمانية فرصاً عظيمة لمواصلة جهادها فى أوروبا والبحر المتوسط .

غير أن السلطان سليم الأول لم يقنع بغزو فارس فى سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤م) ، فاتجه إلى حدود الدولة المملوكية الشمالية فى سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦م) ، لهذا بادر سلطان الدولة المملوكية قانصوه الغورى بالزحف بقوّاته صوب حلب للدفاع عن حدود دولته الشمالية .

ومن الثابت تاريخياً أن فريقاً من علماء الأزهر رافقوا جيش الغورى الذى زحف صوب الشمال ، ومن أبرز هؤلاء العلماء قضاة القضاة الأربعة : كمال الدين الطويل الشافعى ، ويحيى الدميرى المالكى ، وأحمد الفتوحى الحنبلى ، وحسام الدين بن الشحنة الحنفى ، وهؤلاء كانوا على رأس جماعة كبيرة من القضاة نوّاب الأحكام ، والعلماء ومشايخ العلم ، والوعّاظ ، والأئمة ، ومشايخ القرّاء ، والمؤذنين ، كما انضم إليهم الخليفة العباسى المتوكل على الله الذى كان يَعُدُّ نفسَه من العلماء .

بيد أن الهزيمة حلّت بجيش المماليك فى موقعة « مرج دابق » بالشام فى سنة ٩٢٢ هـ ، وقُتِل فيها عدد عظيم من القادة والجنود المماليك ، وعلى رأسهم السلطان الغورى ، كما قُتِل عدد من العلماء والقضاة والأئمة ، وأُسِر مع مَن أُسِر قضاة القضاة الثلاثة الشافعى والمالكى والحنبلى . أما قاضى القضاة الحنفى ، فإنه رافق المنسحبين إلى الجنوب صوب مصر .

وقد واصل العثمانيون زحفهم صوب مصر ، فانتصروا على المماليك فى موقعة « غزة » ، ثم فى موقعة « الريدانية » فى هذا العام ، وهذا الانتصار فتح أمامهم الطريق إلى القاهرة فدخلوها فى شهر المحرَّم سنة ٩٢٣ هـ (يناير ١٥١٧م) . وهنا برز دور علماء الأزهر فى حرب المقاومة التى قادها المماليك

ضد العثمانيين ، وكان شعب مصر هو القوة الفعّالة فيها بعد أن دعمه العلماء بقوة عقدية أساسها أن الغزاة العثمانيين بُغاة .

ومن أعظم علماء الأزهر الذين شاركوا فى هذه المقاومة وقادوها معنوياً الشيخ الإمام يحيى بن العداس خطيب جامع شيخو بالقاهرة ، ذلك العالم الذى أعلَى كلمة الحق من فوق منبر هذا الجامع معلناً بغى السلطان سليم وقوّاته ، ومؤيداً حق السلطان طومان باى وقوّاته ، وقد كان لشجاعة هذا العالم أثر عظيم فى نفوس خطباء مساجد القاهرة وجوامعها الكبرى ، فأعلنوا أنَّ طومان باى سلطان مصر هو الحاكم الشرعى ، وأن حكم السلطان سليم باطل ، وقد رافق هذا الإعلان انتصار المقاومة المصرية على الغزاة العثمانيين فى معظم مناطق القاهرة ، وسقوط أعداد كبيرة من العثمانيين قتلى وجرحى ، حتى أصبح زمام الأمر فى القاهرة بيد المقاومة ، « وأصبح العثمانيون مطلوبين بعد أن كانوا طالبين » ، كما قال مؤرِّخ هذه الحقبة الشيخ محمد بن إياس الحنفى .

غير أن قوّات السلطان سليم استطاعت بكثرتها وبنادقها ومدافعها أن تُلحق بالمقاومة هزيمة ساحقة ، فاضطر السلطان طومان باى ومَن بقى من قوّاته إلى الانسحاب إلى شرق النيل . وهناك خاض بقوّاته ست معارك ضد العثمانيين الذين عبروا خلفه ، فانتصر فى خمس منها ، لكنه هُزِم فى المعركة السادسة التى خاضها ضد العثمانيين فى « أُم دينار » فى ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ (إبريل ١٥١٧م) ، ثم تمكن العثمانيون بعدها من أسره وبعض قادته الكبار ، حيث لقوا مصارعهم ، وبموت السلطان طومان باى انتهت دولة المماليك التى حكمت مصر والشام والحجاز واليمن قرنين وثلثى قرن من الزمان ، وأصبحت مصر ولاية عثمانية منذ هذا التاريخ ، فكيف كانت مواقف علماء الأزهر إبّان هذه الحقب من التاريخ ؟

هذا ما سأبينه بمشيئة الله تعالى فى الموضوعات التالية .

* * *

دلائلُ تاريخيةٌ على مكانةِ الأزهرِ وعُلَمائِهِ فى العَصْرِ العُثْمانىّ

أَنِسَ علماء الأزهر وشعب مصر إلى الدولة العثمانية بعد أن عَرَفُوها دولةً من دول الخلافة الإسلامية ، سُنِّيَة المذهب ، تدافع عن العالَم الإسلامى ، وتحمى حدوده ، وترفع لواء الجهاد فى البر والبحر ، وتقف للأطماع الصليبية بالمرصاد ، وتُعلى أركان الشريعة ، وتحمى الحرمين الشريفين وتلبى مطالبهما ومطالب مَن جاورهما ، وتدعمهما وتُعلى من شأنهما ، وتبنى المساجد والجوامع والمدارس ، وترصد لها الأوقاف ، وتدعم ما وُقِف عليها ، وتجل العلماء وتجعل مكاناتهم فوق مكانات الأُمراء .

ففى نظام الدولة العثمانية كان المفتى الأعظم وسائر العلماء يجلسون عن يمين السلطان ويجلس الوزراء والأُمراء عن يساره ، ويقف القادة العسكريون على أقدامهم ، ولا يُؤذن لأحدهم بالجلوس فى حضرة السلطان إلا إذا احتاج إليه السلطان أو الصدر الأعظم فى مشورة عسكرية .

وهكذا كانت مجالس علماء الأزهر فى الديوان العالى بمصر : يجلسون عن يمين والى مصر الباشا العثمانى ، بينما يجلس الأُمراء عن يساره ، ويقف القادة العسكريون منتصبين إلى أن يُسمَح لهم أو لأحدهم بالجلوس .

حكى مفتى إسلامبول شمس الدين أحمد بن كمال باشا كيفية تحوله من العسكريين إلى العلماء فى عهد السلطان بايزيد الثانى (٨٨٦ - ٩١٨ هـ) ، فذكر أن سبب ذلك هو ما رآه من تكريم السلطان والدولة للعلماء ، وجلوسهم فى مجالس أعلى من مجالس الأُمراء .

ثم قال فى نهاية حديثه : « إن العلماء معظَّمون بعلمهم ، فلو تأخَّر أحدهم عن مجلسه تواضعاً لم يَرْضَ بذلك السلطان والصدر الأعظم

والوزراء » ، كما جاء فى قانون الدولة العثمانية : « إن العلماء مهما حدث منهم من مخالفات لا يُقتلون ، وإن حدث منهم ظلم يُنفَوْن . . . . » .

وفى مصر كان علماء الأزهر لا يُذكَرون إلا مسبوقين بلقب « ساداتنا » ، فيقال : « ساداتنا العلماء » ، كما كان طلبة العلم المجاورون فى الأزهر لا يُذكرون إلا مسبوقين بلقب « السادة » ، فيقال : « السادة المجاورون بالجامع الأزهر » .

وقد جاء هذان اللقبان فى الفرمانات والرسائل الرسمية ، كما دُوِّنَا فى السجلات الأميرية والشرعية .

كما جاء فى منشور قاضى قضاة مصر فى الخامس من ذى القعدة سنة ٩٧٣ هـ (مايو ١٥٦٦م) أن الأكابر فى مصر طبقتان : طبقة العلماء ، وطبقة الصناجق والأُمراء ، وقد قدَّم قاضى قضاة مصر فى منشوره العلماء على الصناجق والأُمراء . . .

ومما لا شك فيه أنه بالإضافة إلى نظام الدولة العثمانية الذى رفع شأن العلماء هناك أسبابٌ أُخرى جعلت أصغر العلماء فى مجتمعه كأحسن الأُمراء ، فحاز العلماءُ تبجيل المجتمعات ، واحترام الحكومات التى تعاقبت على مصر ، وفى جميع الأحوال كساهم اللهُ - عَزَّ وجَلَّ - كسوة الهيبة والوقار .

* **هذه الأسباب هى :**

أولاً : زُهْد العلماء وورعهم وعزوفهم عن متع الدنيا وزهرتها .

ثانياً : دفاعهم عن الحقوق العامة قبل حقوقهم وقبل حقوق طلبة العلم .

ثالثاً : قيادتهم للانتفاضات والثورات الشعبية وانتصارهم للحق ولو كان صاحبُه ضعيفاً ، ومجابهتهم للباطل ولو كان صاحبه طاغية قوياً وهو ما أكسبهم حب الناس وولاءهم .

رابعاً : كان منصب شيخ الأزهر أعظم مناصب العلماء فى مصر ، وكان شيخ الأزهر يختاره علماء الأزهر من بينهم ، ولا يملك والى مصر العثمانى

(الباشا) والحكومة العثمانية فى إسلامبول إلا أن توافق على هذا الاختيار ، وكما كان علماء الأزهر قادةً لشعب مصر كان شيخ الأزهر الزعيم الأكبر لهذا الشعب يدافع عن حقوقه وحريَّاته فى الديوان العالى بقلعة مصر ، وفوق أعظم منابر مصر تأثيراً .

خامساً : ظل القضاء فى مصر تحت سيطرة علماء الأزهر فى الأغلب والأعم ، وكانت دقتهم فى تحرى العدل ونشره ، وإقصاء الظلم ورفضه مما أكسبهم حب الناس وولاءهم .

سادساً : كانت جميع مناصب الإفتاء فى مصر بيد علماء الأزهر ، وأشهر هذه المناصب إفتاء السلطنة ، وإفتاء القاهرة ، وإفتاء المدن الشمالية ، وإفتاء المدن الجنوبية ، وإفتاء الديوان العالى ، وإفتاء المحاكم ، وقد اشتهر المفتون فى مصر بشجاعتهم ودقتهم فى تحرِّى الحق والعدل ، وعدم مبالاتهم أن تمس الفتوى أميراً أو والياً أو سلطاناً .

سابعاً : كان العلماء لا تسيطر عليهم رئاسة فى مصر إلا رئاسة شيخ الأزهر ولا تسيطر عليهم رئاسة فى إسلامبول إلا رئاسة المفتى الأعظم .

كما كان القضاة فى مصر لا تسيطر عليهم رئاسة إلا رئاسة قاضى القضاة ، ولا تسيطر عليهم رئاسة فى إسلامبول إلا رئاسة شيخ الإسلام قاضى عسكر أفندى .

ثامناً : اكتسب العلماء من وجودهم فى الديوان العالى قوةً رسميةً مكنتهم من إعلاء كلمتى الحق والعدل ، والدفاع عن الحقوق العامة ، والتصدى لكثير من الطغاة الذين غرَّتهم زعاماتهم ، وخدعتهم قوَّاتهم ومناصبهم .

تاسعاً : المنبر ، والنقبْلة ، والحلقة ، والكتاب ، هذه الوسائل الشريفة الأربع وضعت فى أيدى العلماء ناصية الرأى العام فى مصر ، كما أكسبتهم حب العامة والمثقفين ، وجعلتهم أقرب فئات مصر إلى العقول والقلوب .

وليس أبلغ ولا أوثق من أن نعرف مكانة الأزهر وعلمائه من أقوال بعض الأعيان الذين عاشوا فى هذه الحقب التاريخية ، وعبَّروا عما شاهدوه بأنفسهم .

قال الشيخ الحافظ المفسِّر أبو بكر بن إسماعيل الشنوانى المتوفى فى سنة ١٠١٩ هـ (١٦١١م) : « إن أول بيت وُضع للناس فى القاهرة هو الجامع الأزهر ، وهو بذكر الله تعالى معمور ، فيه اكتساب السيادة واستيعاب السعادة ، فياله من جامع ما أزهره ، وموضع ما أنوره » .

وقال إبراهيم باشا بعد أن أصدر فى سنة ١٠٧١ هـ (١٦٦٠م) فرمان العفو عن رجال الحزب الفقارى المحتمين بالجامع الأزهر والفارِّين :

« إن فرمان العفو ما صدر إلا امتثالاً لما رآه السادة العلماء الفضلاء » .

وقال الشيخ المؤرِّخ إبراهيم الصوالحى الذى عاصر وقائع سنة ١٠٧١ هـ :

« فصلٌ فيما وقع يوم الأحد السابع عشر من ربيع الأول سنة ١٠٧١ هـ : اجتمعت طائفةُ السادة العلماء الوجهاء الكرماء ، ورثة الأنبياء ، وعُمُد الأتقياء ، ذوى المراتب العلية ، والأخلاق الحسنة المرضية ، عُمُد الدنيا والدين ، ونجوم أهل الهُدَى واليقين ، منقذى الخلق من الضلال ، ومرشديهم إلى طريق الحق وصالح الأعمال ، شريعة الله تعالى فى أرضه ، القائمين بسنن نبيه وفرضه ، مَن بهم تُحَل المشكلات ، وتُقَال العثرات ، ويُعرف الحلال ، ويُجتنب الحرام ، ويحسن سلوك الانتظام ، الذين هم للخير قادة ، ولمن أطاعهم السعادة ، الذين مَن اقتدى بهم اهتدى ومَن خالفهم ضلَّ واعتدى ، ورغب عن الطريق القويم وغوى ، وابتعد عن الصراط المستقيم وهوى ، بسبب هؤلاء الجماعة الذين حضروا إلى الجامع الأزهر للاحتماء بعلمائه » .

وقال الشيخ إبراهيم المأمونى الشافعى فى رسالته التى بعث بها إلى السلطان محمد الرابع فى سنة ١٠٧٤ هـ (١٦٦٣م) :

« إن القاهرة فى هذا العصر عامرة بالعلم والعلماء والحُفَّاظ والفهماء ، خصوصاً الجامع الأزهر ، والموطن الأنور .

وإن العلماء والفهماء وحُفَّاظ القرآن العظيم القاطنين فى الجامع الأزهر والمحل الأنور ، هم القائمون بفريضة العلوم والشعائر ، وسلوك هذه المسالك ، المداومون على الاشتغال بالعلوم والأذكار آناء الليل وأطراف النهار ، بالغدو والآصال » .

وقال : « إن إقفار الأزهر من العلوم والعلماء سيؤدى إلى خراب إقليم مصر العظيم ، وبطلان ما فيه من الخير الجسيم » .

وقال الشيخ المؤرِّخ إبراهيم الصوالحى بعد حديثه عن المواجهة التى احتدمت بين الأزهر وجيش الضرب القاسمى ، والتى انتهت بالقضاء على هذا الجيش فى سنة ١٠٧٦ هـ (١٦٦٥م) :

« إن ما حدث (أى القضاء على هذا الجيش) كان سببه دعاء العلماء بالأسحار القاطع لكل جبَّار ، المُهْلِك لكل جبَّار وهدَّار ، وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً » .

وقال : « ولولا العلماء الأُباة لازداد الخَطْب ، ولعمَّ البلاء والكرب .... » .

ووصف الشيخ عبد الله بن محمد بن أبى بكر العياشى المتوفى فى سنة ١٠٩٠ هـ (١٦٧٩م) الأزهر إبَّان رحلته إلى القاهرة فقال :

« وبتنا تلك الليلة فى الجامع الأزهر المعمور بالتعليم والتلاوة والذكْر آناء الليل وأطراف النهار ، لا تنقطع منه العبادة ليلاً ونهاراً ، صيفاً وشتاءً ، فهو عديم النظير فى مساجد الدنيا حاشا المساجد الثلاثة لما لها عند الله من الفضل ، وغير مستنكَر وجود مزية فى المفضول ليست فى الفاضل ، إذ الفضل بوجود التفضيل لا بوجود الفضيلة » .

والعياشى بقوله هذا كان يرى أنه لولا تفضيل الله سبحانه وتعالى للمساجد الثلاثة : المسجد الحرام بمكة ، ومسجد النبى ﷺ بالمدينة ، والمسجد الأقصى بالقدس ، لكان الأزهر أفضل المساجد فى الدنيا كلها لما فيه من المزايا التى ذكرها .

وقال الشيخ محمد بن أبى القاسم المالكى الشاذلى من علماء القرن الحادى عشر الهجرى : « ألا إن لكل شىء حرماً ، فحرم مكة المسجد الحرام ، وحرم المدينة المسجد النبوى ، وحرم القدس المسجد الأقصى ، وحرم المغرب جامع الزيتونة ، وحرم مصر الجامع الأزهر . . . . . » .

ووصف الشيخ عبد الله بن مراد العثمانى الأزهرى من علماء القرن الحادى عشر الهجرى الأزهر ، فقال : « إن فضائله لا تُحصَى ، وخصائصه لا تُستقصَى ، وكفى به شرفاً كثرة دراسة العلوم ، وتلاوة القرآن الكريم ، وإقامة الصلوات فيه ، وإن الله تعالى خَصَّ هذا الجامع وأهله بالتعظيم والتبجيل والنورانية ، فكل من يدخله يشرح الله تعالى صدره ، ويزيل همّه ، وييسر له أمره ، وبالخيرات يعمه » .

ثم أشار الشيخ عبد الله بن مراد إلى اعتقاد ساد أهل العلم ومختلف الفئات فى مصر ، وهو أن استمرار عمران مصر وازدهارها بالخيرات مرتبط بعمران الأزهر وازدهاره بطلبة العلم والعلماء .

ثم قال : « إن كل متعلم لم يتلق علمه فى الأزهر لا يصير عالماً ، وإن كل عالِم لم يُخصَّص له فى الأزهر درسٌ يلقيه على العام والخاص ، فهو وعلمه لا شىء ولا يسمى عالِماً نحريراً . . . » .

وروى مرتضى بك الأغا فى قلعة مصر أن شيخ الأزهر محمد شنن المالكى طلب من والى مصر على باشا فى الديوان العالى تخصيص مبلغ من المال الأميرى لتجديد بعض مبانى الأزهر ، وذلك فى سنة ١١٣٢ هـ (١٧٢٠م) ومما قاله فى الديوان العالى : « إن الأزهر محل العلم الذى ببقائه بقاء الدولة العثمانية . . . » .

ولا شك فى أن هذه الكلمة الموجزة صادرة عن وعى وإدراك عظيمين لطبائع حياة الأُمم ومجريات النُّظُم فيها ، فالعلم أساس تنهض به الأُمم ، وتداعى العلم وأسبابه فى أُمَّة من الأُمم يؤدى إلى تداعى نظامها وسقوطها .

وقال رجب باشا بعد أن عقد علماء الأزهر الصلح بينه وبين الصناجق المماليك فى سنة ١١٣٣ هـ (١٧٢١م) : « إننى ما عفوت عن صناجق مصر ، وما أتممت الصلح معهم إلا إكراماً للعلماء ومشايخ العلم » .

وقال الشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الأزهر فى رسالته التى بعث بها إلى السلطان محمود الأول فى سنة ١١٤٨ هـ (١٧٣٥م) :

« إن القاهرة فى زمنكم عامرة بالعلم والعلماء ، والحُفَّاظ والفهماء فى المساجد والزوايا والرباطات والتكايا ، وخصوصاً أهل الجامع الأزهر والموطن الأنور ، وهم قائمون بالفريضة بنشر الشريعة الغرَّاء ، دائمون على ذلك شهراً ودهرا ، منهمكون فى الاشتغال بطلب العلم آناء الليل وأطراف النهار . . . .

ومتى - والعياذ بالله - قُطعت رواتب أهل العلم وعلوفاتهم ، أو أُبطلت ، أو حصل فيها خلل أو عُطلت ، بطل الاشتغال بالعلوم وتعلم لقرآن الكريم وحفظه ، ووقع خلل فى تلك الرسوم ، وآل ذلك إلى خراب هذا الإقليم العظيم ، وبطلان ما فيه من الخير الجسيم ، وربما قامت الرعية وهاجت ، واضطربت أحوالها وماجت . . . . » .

وخلال المفاوضات التى جرت بين الزعيمين إبراهيم بك ومراد بك المتمركزين بقواتهما فى الصعيد ، وبين الباشا وأعضاء الديوان العالى حَوْلَ عودتهما إلى القاهرة ، بعث هذان الزعيمان برسالة إلى القاهرة فى شوَّال سنة ١٢٠٥ هـ (يونيو ١٧٩١م) جاء فيها : « قد طال اغترابنا ، وعزمنا على دخول القاهرة على أساس الصلح ، وقد تُبْنا عن المظالم ، وبيدنا فرمان من السلطان تضمن العفو عنا ، ونعاهدكم على أن ما مضى لا يعود ، وأن أسيادنا مشايخ العلم يضمنون كف غائلتنا . . . » .

كما هتف شعب مصر تحيةً لعلماء الأزهر وإظهاراً لأقدارهم ومنازلهم غداة انتصارهم على الأمراء المماليك فى ثورة سنة ١٢٠٩ هـ (١٧٩٥م) قائلاً : « حسبما رسم ساداتنا العلماء بأن جميع المظالم والحوادث والمكوس مرفوعة من الديار المصرية . . . . » .

* * *